التسامح من منظور إنساني

إعداد

الدكتور إبراهيم محمد إبراهيم *

تمهيد

"الإسلام دين الإنسانية" جملة تقتضي أن نقف عندها كثيراً، ونعيد على أساسها كل حساباتنا، ونراجع في ضوئها كل تصرفاتنا، لأن هذه الجملة المتفق عليها تعني أن الإسلام جاء للناس كافة دون تمييز بين لون أو عرق أو جنس، فهو يتعامل مع الإنسان باعتباره إنسانا، وخلقاً كرمه الله تعالى وفضله على كثير ممن خلق. قال تعالى﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[1]. وهذا التكريم اقتضى المحافظة على الإنسان ورعايته وعد التعدي عليه، فقال سبحانه وتعالى ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾[2].

وأسوتنا النبي الخاتم محمد ﷺ الذي كان إنساناً كاملاً بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فكان تجسيداً عملياً للآيات الكريمة التي أشرنا إليها، وأعطى كل ذي

---

* رئيس قسم اللغة الأردية بكلية الدراسات الإنسانية جامعة الأزهر سابقاً، والأستاذ الزائر حالياً بقسم دائرة المعارف الإسلامية بجامعة بنجاب بمدينة لاهور الباكستانية.

[1] – سورة الإسراء آية ٧٠.

[2] – سورة المائدة آية ٩١.

حق حقه، وعلم صحابته ومن بعدهم أمته جميعاً الحفاظ على هذا التكريم الذي منحه الله للإنسان بغض النظر عن دينه وجنسه وعرقه ولونه.

والإسلام دين يقوم على التوحيد، والتوحيد يقوم على الحب، فلن تستطيع أن تخرج من قلبك وإلى الأبد كل ما سوى الله إلا إذا أحببت الله أكثر مما سواه، وإلا ارتد الناس على أعقابهم عن هذا التوحيد بمجرد أن يزول السبب الذي أدخلهم فيه، والحب أصل وليس سبباً أو فرعاً، ولهذا فإن التوحيد القائم على حب الله هو الذي يدوم ويتواصل، ومن هنا وجدنا النبي ﷺ ينفق من عمر دعوته الثلاثة عشر عاماً الأولى يعلم الناس فيها هذا التوحيد من خلال تحبيبهم في الله ورسوله: ﴿...وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ...﴾[1]، والإسلام ينبذ الكراهية والنفور، ولا يكره أحداً على الدخول فيه. قال تعالى ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ..﴾[2].

ولهذا فرض حقوقاً لمن يخالفوننا في الدين من منطلق الإنسانية التي جاء بها كما فرض عليهم واجبات من نفس المنطلق، حتى في أوقات الحرب التي لا يفرق فيها المتحاربون عادة بين ظالم ومظلوم أمرنا الله تعالى بأن لا نقاتل في سبيل الله إلا من قاتلنا، وألا نعتدي، فقال سبحانه ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾[3]، والتسامح يضمن تنفيذ هذه الحقوق وتحقيق هذه الواجبات .

---

[1]- سورة الحجرات آية ٧.

[2]- سورة البقرة آية ٢٥٦.

[3]- سورة البقرة آية ١٩٠.

وورد عَنْ عبد اللَّه بْنِ عَمْرٍو رَضِي اللَّه عَنْهمَا أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ قَالَ تُطْعِمُ الطَّعَامَ وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ "[1].

والشاهد هنا في "من لم تعرف"، فله أيضاً حق إلقاء السلام عليه.

ولنا أن نقول بأن كل الرخص التي أعطاها الله تعالى للناس في صلاتهم وصيامهم وعباداتهم هي في الحقيقة درجة رفيعة من درجات الإنسانية، مثل قصر الصلاة والجمع بين الصلاتين في ظروف معينة، وجواز الإفطار في رمضان لأسباب خاصة، ثم قضاء الأيام التي أفطرها، وفرض الحج على من استطاع إليه سبيلاً، وغير ذلك من الرخص المعروفة في الإسلام تتفق كلها مع مقتضيات الإنسانية، وعندما يرغبنا الإسلام في إخفاء الصدقات فلا تعلم شمالنا ما تنفق يميننا فإنما يراعي بذلك شعور المتصدق عليه، لكي لا يشعر بنقص أو حرمان أو حرج، وكل ما حرمه الله تعالى من سرقة وقتل وزنا وخمر وغيرها مما هو معروف في الفقه الإسلامي يعد أرفع درجة في الحفاظ على الإنسانية وحمايتها مما يضرها أو يؤذيها.

التسامح لغة واصطلاحاً :

من نافلة القول أن نؤكد على أن التسامح صفة إنسانية يؤدي الاتصاف بها إلى سيادة نوع ما من السلام الاجتماعي بين أفراد المجتمع، وعندما نتتبع تاريخ المجتمعات نجد أن التسامح كان دائماً أكثر العوامل التي تحافظ على العلاقات بين الناس بعضهم البعض، فتسير الحياة بسهولة ويسر، وحيثما قلّ

---

[1] -أخرجه البخاري ومسلم في كتاب الإيمان، والترمذي والدارمي في كتاب الأطعمة، والنسائي في كتاب الإيمان وشرائعه، وأبي داود في كتاب الأدب، وابن ماجه في كتابي الأطعمة والأدب.

التسامح أو انعدم أطلت العداوة والبغضاء برأسها، وتغيرت القلوب والأفئدة، ونشبت الصراعات، وربما الحروب. والتسامح يكون بالقول والفعل، واللسان واليد، والمرء بأصغريه قلبه ولسانه.

وبالرجوع إلى المعاجم اللغوية العربية نجد التسامح من المادة اللغوية العربية (س.م.ح)، والتي تعني من بين ما تعنيه:

١- التسامح: اللين في التعامل، فنقول: تسمّح- تسامح، ويقولون: السماح رباح، يعني أن اللين في التعامل مفيد ومربح[١].

٢- السماح: بيع السماح، يعني ما كان فيه تساهل في بخس الثمن، ونقول: رجال ونساء سماح وسمحاء ومساميح، وعلى هذا يمكن فهم قول النبي ﷺ المروي عَنْ جَابِرِ بْنِ عبد الله رَضِيَ اللَّه عَنْهمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ قَالَ رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى[٢]، والمقصود هنا اللين في التعامل والكرم والجود.

٣- التسامح: العفو والمغفرة، ومنها: سامح، يسامح، السماح، وهي تعني من بين ما تعنيه العفو والإذن والمنح، ومنها نقول سماحة الوجه، وهي سمة تعلو الوجه الطيب، وبإضافة حرف الزيادة التاء (ت) تفيد الكلمة معنى التشارك والمشاركة، وهو ما يعني أن يكون الفعل مشتركاً بين طرفين أو أكثر، وبالتالي فإن التسامح فعل مشترك بين فردين أو مجموعة من الأفراد، أو بين جماعتين أو مجموعة من الجماعات، ومن هذا الاشتقاق التراحم، أي تبادل الناس للرحمة فيما بينهم، والتعاطف، أي تبادل العطف، وهكذا.

٤- التسامح: النزول درجة عن الندية والعقاب، وهو ما قد يأخذ اسم الشفاعة في أمر يقتضي عقاباً، ومنه ما ورد عن عَنِ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ

---

[١]- المنجد – لاهور – باكستان – ص ٣٩١.

عَائِشَةَ أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ فَقَالَ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا [1] .

أسس التسامح وأركانه:

من المعلوم أن الصفات والأخلاق يكمل بعضها بعضاً، وعيوب المجتمع تظهر بقدر تراجع الأخلاق ونقص الصفات الحميدة. وتضم صفة التسامح بداخلها عدة صفات أخلاقية حميدة، أو بتعبير آخر فإن التسامح يعدّ انعكاساً للصفات الأخلاقية الحميدة، يكسو من يتصف بها. والتسامح سلوك عام ينبغي أن يكون غير متكلف، ولكن لأن مثل هذا الأمر لا يكون بين الناس بكثرة لاختلاف طبائعهم، لهذا قد يكون التسامح بدافع من الإحساس بالمسئولية تجاه المجتمع، أو تجاه الأسرة، لكنه على أية حال يشيع جوا من السلام بين الأفراد والأمم والشعوب، وهو سلوك ينبغي أن نشجع عليه حتى وإن كان متكلفاً. ويقوم التسامح أساساً على:

---

[1] – أخرجه الإمام مسلم في كتاب الحدود، والبخاري في كتاب الشهادات، وكتاب أحاديث الأنبياء، وكتاب المناقب، وكتاب المغازي، وكتاب الحدود، والترمذي في كتاب الحدود، والنسائي في كتاب الزكاة، وكتاب قطع السارق، وأبي داود وابن ماجه والدارمي في كتاب الحدود، والإمام أحمد في مسنده.

١ - التواضع ولين الجانب:

قال تعالى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [١].

ففي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ"[٢].

فالتواضع من التسامح، أو بالأحرى التسامح نتيجة من نتائج التواضع ومظهراً من مظاهره، والعكس من ذلك فإن التشدد والتكبّر والعجب يتنافى مع مبدأ التسامح.

يقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه فيما يرويه عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ قَالَ رَجُلٌ إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً قَالَ إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ"[٣].

وهذا هو أسلوب التعامل الصحيح بين البشر عامة، واللين للناس أو لين الجانب رحمة من الله تعالى، ولا تنال هذه الصفة إلا برحمته أيضاً، والفظ غليظ

---

[١] - سورة آل عمران آية ١٥٩.

[٢] - صحيح مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، والترمذي في كتاب البر والصلة، والإمام مالك في كتاب الجامع، والدارمي في كتاب الزكاة، والإمام أحمد في مسنده.

[٣] - صحيح مسلم في كتاب الإيمان، والترمذي في كتاب البر والصلة، وأبو داود في كتاب اللباس، وابن ماجه في كتابي المقدمة والزهد، وأحمد في مسنده.

القلب ينفض الناس من حوله، ومن لا يعفو عن الناس ولا يستغفر لهم ولا يشاورهم في الأمر يخسر حبهم وإخلاصهم وصادق عونهم.

٢ - التحمل والصبر:

ويقوم التسامح أيضاً على التحمل والصبر وكظم الغيظ والتحكم في النفس، وكلها من صفات المتقين، قال تعالى ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[١].

٣ - الرفق والأناة :

ومن أهم أسس التسامح الرّفق والحلم والأناة، كما روت عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ"[٢].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى أَعْرَابِيًّا يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ دَعُوهُ حَتَّى إِذَا فَرَغَ دَعَا بِمَاءٍ فَصَبَّهُ عَلَيْهِ"[٣].

٤ - الجود والكرم:

للتسامح وجهان:

---

[١] - سورة آل عمران آية ١٥٩.

[٢] - مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، والبخاري في كتاب استتابة المرتدين، والترمذي في كتاب الاستئذان والآداب.

[٣] - البخاري في كتاب الوضوء، ومسلم والترمذي والدارمي ومالك في كتاب الطهارة، والنسائي في كتابي الطهارة والمياه، وابن ماجه في كتاب الطهارة وسننها، والإمام أحمد في مسنده.

- الوجه الأول هو التنازل درجة، أي أن تتنازل عما لك عند الآخرين.
- الوجه الثاني أن تعطي الآخرين مما عندك، وهو بالتالي يدخل في صفة الكرم والجود، والكرم ليس مجرد عطاء، فرب معط ينفر الناس منه، لأنه لا يعطي بسماحة نفس ولا عن طيب خاطر، حتى وإن كثر عطاؤه، أما الذي يعطي بسماحة نفس وطيب خاطر فهو الذي يحظى بمكانة في قلوب الناس، وكما يقولون: أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم، والتاجر المتسامح يكون أكثر ربحاً من غيره، حتى وإن باع بسعر أقل مما يبيع به الآخرون، لأنه سيبيع أكثر، وبالتالي يكون ربحه أكثر، والتسامح هو الذي يخلق الحب، لأن التسامح كما قلنا عطاء في جهتيه، سواء مما لك أو مما عندك، والمعطي محبوب على كل حال.

٥ - الاعتراف بالآخر واحترامه :

ومن الأسس التي يقوم عليها التسامح الاعتراف بوجود الآخر واحترامه، ولا بد أن نفرق بين التسامح وحسن التعامل وسعة الصدر ورحابته، وبين قبول الآخر والاعتراف به واحترام وجهة نظره، فإن كان التسامح وحسن التعامل من صفات الفضل التي يطبقها الإنسان في تعاملاته مع الناس وإن لم يكن مجبراً عليها إلا بقدر ما تفرضه الحياة، إذ أنها كلها أفعال شعورية تنتج عن إحساس بالمسؤولية وتقدير للواجب، لكن قبول الآخر والاعتراف به واحترام وجهة نظره واجب من واجبات الإنسان التي لا بد أن يقوم بها ويؤديها وإلا كان مقصراً مسيئاً، والإسلام يعلمنا احترام الآخر حياً وميتاً، والنبي ﷺ كان الأسوة الحسنة في ذلك، فقد ورد عَنْ جَابِرِ بْنِ عبد الله رَضِي اللَّه عَنْهمَا قَالَ مَرَّ بِنَا جَنَازَةٌ فَقَامَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ وَقُمْنَا به فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّه إِنَّهَا جِنَازَةُ يَهُودِيٍّ قَالَ إِذَا رَأَيْتُمُ الْجِنَازَةَ فَقُومُوا "[١].

[١] - البخاري ومسلم والنسائي وأبي داود في كتاب الجنائز، وأحمد في مسنده.

وفي رواية أخرى عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِقْسَمٍ عَنْ جَابِرٍ قَالَ مَرَّتْ بِنَا جِنَازَةٌ فَقَامَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقُمْنَا مَعَهُ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهَا جِنَازَةُ يَهُودِيٍّ قَالَ إِنَّ الْمَوْتَ فَزَعٌ فَإِذَا رَأَيْتُمُ الْجِنَازَةَ فَقُومُوا ".

التسامح في المأثور الإنساني

التسامح في جانب منه معادلة منطقية مبنية على العقل والمنطق، واتباعه يفيد الطرفين "المتسامح والمتسامح معه" فائدة مادية ملموسة، فالتاجر الذي يتسامح في بعض ربحه يتزايد مجموع هذا الربح بكثرة المشترين، ويحصل المشتري على سلعة بسعر أقل، والمظلوم الذي يتسامح فيما وقع به من ظلم يكسب محبة الله والناس، ويعطي الفرصة لمن ظلمه في أن يعيد حساباته ويتراجع عن ظلمه، وهنا لا بد من التفريق بين التسامح في حق ما والتنازل عن هذا الحق، فالتنازل يكون عن ضعف، بينما يكون التسامح عن قوة، والتسامح في الحقيقة ضرورة إنسانية قبل أن يكون ضرورة دينية، إذ أن الاختلاف والتنوع من أساسيات الفطرة، وموجود منذ بدء الخليقة، وبالاختلاف نعرف الأشياء، والضد يظهر حسنه الضد، ومن سنن الله تعالى أن من لا يرحم لا يرحم، وأن من يظلم يجد من يظلمه، وأن من لا يتسامح مع الناس وجد من لا يتسامح معه، والعرب تقول " بالبر يستعبد الحر "[1]، " وإن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً "، ويضرب للمدلّ بنفسه إذا مني بمن هو أدهى منه[2]، والتسامح يكون بالقول والفعل، واللسان واليد، والمرء بأصغريه قلبه ولسانه.

---

[1] – د.إبراهيم محمد إبراهيم ود. أحمد محمد أحمد – من علماء العربية في شبه القارة الهندية – القاهرة – مصر ٢٠٠٦م – ص ٢٨ .

[2] – أحمد حسن الزيات– تاريخ الأدب العربي– بيروت – لبنان ١٩٩٣م – ص ٢٢ .

يقول قس بن ساعدة الأيادي:

"ومن ظلمك وجد من يظلمه"[1].

ويقول عمرو بن معد يكرب الزبيدي[2]:

"إنما المرء بأصغريه، قلبه ولسانه، وعفو الرأي خير من استكراه الفكرة، فاجتبذ طاعتنا بلفظك، واكتظم بادرتنا بحلمك، وألن لنا كنفك يلن لك قيادنا"[3].

وتقول العرب "إنك لا تجني من الشوك العنب"، أي لا تجد عند ذي المنبت السوء جميلاً[4]، وقيل "أدع إلى طعامك من يدعو إلى جفائك"[5]، والتسامح قوة في المتسامح، والضعيف أبعد الناس عن التسامح. قال كثيّر عزة :

ومن لا يغمّض عينه عن صديقه وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب .

ومن يتتبع جاهداً كل عثرة يجدها ولا يسلم الدهر صاحب [6].

التسامح بين الانتقام والعفو

لكل صفة بشرية أعلاها وأدناها، وأدنى التسامح الانتقام والثأر﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ

---

[1]- المرجع السابق – ص ٢٠ .

[2]- المولود في ٥٣٥م والمتوفى سنة ٦٤٣م.

[3]- المرجع السابق – ص ٢١

[4]- المرجع السابق – ص ٢٢ .

[5]- د.إبراهيم محمد إبراهيم ود. أحمد محمد أحمد – من علماء العربية في شبه القارة الهندية – القاهرة – مصر ٢٠٠٦م – ص ٢٧.

[6]- المرجع السابق – ص ١٠٦.

أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[1]، وأعلاه العفو، فإذا تناقص التسامح وتراجع انتهى إلى الثأر، وإذا ارتقى وتطور وصل إلى العفو، فالعفو إذاً هو الدرجة الأعلى للتسامح، والتسامح درجة من درجاته، ولكنه مشروط بعفو الطرف الآخر، بمعنى أن يقع العفو من الطرفين ويتشاركا فيه، وعندئذ يكون تسامحاً، أما إن كان من طرف واحد فهو الدرجة الأعلى أي العفو، وفيه يعفو الإنسان بشكل مطلق دون أن يتوقع أو ينتظر مقابلاً من الطرف الآخر. ولأن التسامح أقل درجة من العفو فهو الأيسر والأكثر تحققاً، لكن العفو أقيم، والله يدعو إلى العفو بقوله سبحانه:

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[2].

ولقد كان النبي ﷺ المثال الأرفع في العفو، فعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ لِنَفْسِه إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّه فَيَنْتَقِمَ لِلَّه بِهَا" [3].

التسامح عملياً

وأول تطبيق عملي لمبدأ التسامح في الحياة قام به "هابيل" بن آدم عليه السلام وذلك حين هدده أخوه "هابيل" بأنه سيقتله إن لم يوافقه على ما يريد، لكن

---

[1] – سورة البقرة آية ١٩٤.

[2] – سورة آل عمران آية ١٣٤.

[3] –البخاري في كتاب المناقب، ومسلم في كتاب الفضائل، وأبي داود في كتاب الأدب، ومالك في كتاب الجامع.

هابيل لم يقابل هذا التهديد بتهديد مثله، ولم يحاول الاعتداء على "قابيل" على غرار" تغدى به قبل أن يتعشى بك"، وإنما قابل غطرسة أخيه بتسامح شهد به القرآن الكريم فقال تعالى:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [١].

ورغم أن هذا التسامح قد كلف "هابيل" حياته لكنه ثبت على مبدئه، وأصدر الله تعالى حكمه﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[٢].

وهذا يعني أن التسامح قيمة كبرى تبذل من أجلها الأرواح، لأن التسامح في الحقيقة مبدأ لا بد أن يتبع، ولا تستقيم الحياة إلاّ به، فكأن التسامح إذاً نوع من التضحية، والمجتمعات تقوم على التضحيات، وما خسر من ضحى، إذ أن التضحيات لا تضيع هباءاً، وإنما تثمر ثمرتها التي تقوي بنيان المجتمعات.

ثم إننا نجد أعظم مثال للتسامح في سيرة النبي ﷺ وذلك ضمن أحداث فتح مكة المكرمة حين جمع النبي ﷺ أهل مكة الذين آذوه غاية الإيذاء، وحاولوا في استماتة أن يقتلوه أو يتخلصوا منه، وأخرجوه من مسقط رأسه، وسألهم النبي ﷺ قائلاً "ماذا تظنون أني فاعل بكم؟". قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، فقال ﷺ :

---

[١]- سورة المائدة آية ٢٧، ٢٨.

[٢]- سورة المائدة آية ٣٢.

لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء"[1]. وكان بإمكان النبي ﷺ وهو الفاتح عندئذ وصاحب الكلمة العليا أن ينتقم من أهل مكة لما فعلوه به، ولكن النبي ﷺ لم يفعل، وضحى بما أصابه جراء إيذائهم، لكنه كسب قلوبهم.

أعداء التسامح

ومن أعداء التسامح لدى الإنسان الأنانية وحب الذات بشكل مبالغ فيه، فكلما أحب الشخص نفسه لم تسمح له باتساع الصدر ورحابته مع الآخرين، إذ الأناني يريد أن يحوز كل شيء لنفسه، ويمتلك كل ما تراه عيناه وتسمعه أذنه ويتصوره عقله، وهو في هذا لا بد جائر على حقوق الآخرين حتى وإن لم يشعر بذلك. وعلى فرض أن الأناني لم يأخذ حقوق الآخرين، ولم يستول عليها بغير حق، فإن نفسه تمنعه من العطاء، وبالتالي يصبح وجوده وجوداً سلبياً غير مؤثر في المجتمع، ورغم أن هذا في ذاته أفضل من الأناني الإيجابي الذي يجور على حقوق الآخرين، لكنه على أية حال لا يسهم في تحسين الوضع الأخلاقي للمجتمع الذي يعيش فيه. ومن أعداء التسامح كذلك الغرور وضيق الأفق وعدم احترام الآخر.

بين التسامح في الدين والتسامح الديني

يتأثر الفهم العام للدين في كل عصر بالأحداث الطاغية فيه، والضغوط التي تمارس على المسلمين، وخاصة في عصور ضعفهم، ومن هنا نلحظ تركيزاً على مفاهيم بعينها في زمن بعينه، ومحاولة إعطاء هذه المفاهيم معان معينة تمت لها

---

[1] – يمكن مراجعة الواقعة كاملة في كتب السيرة النبوية، ولم نذكرها هنا تفصيلاً، واكتفينا بالإشارة إليها لأنها معروفة للجميع.راجع أيضاً حافظ محمد طاهر محمود أشرفي– رواداري سيرت طيبة كي روشني مين – لاهور – باكستان ٢٠٠٠ – ص ٣٤.

بصلة قريبة أو بعيدة لإحداث نوع ما من المواءمة، ولا شك أن مثل هذا التفسير أو التأويل للمفاهيم في ظروف الضعف والضغط هذه لا يكون عادة في وسط دائرة الاعتدال والتوازن وإن لم يكن خارجها، على سبيل المثال مفهوم الجهاد الذي كان يميل في عهود قوة المسلمين إلى الجهاد المسلح، وتركز في عهود ضعفهم على الجانب السلمي في مفهومه، واقتصر على مفهوم جهاد النفس وجهاد العلم وجهاد العمل وجهاد الحياة وما إلى ذلك من المفاهيم، ورغم أن الجهاد يضم بداخله كل هذه المفاهيم بالفعل، إلا أن بعضها يتوارى كما قلنا طبقاً للظروف التي يعيشها المسلمون، ويبرز ثانية في ظروف أخرى، وربما كان هذا من وسعة الإسلام ومناسبته لكل زمان ومكان، ولكن يجب أن تكون هذه المفاهيم واضحة لدى المسلمين باعتبار الاجتهاد الصحيح في الدين وليس باعتبار الضغوط الواقعة عليهم.

ونستطيع أن نقول نفس الشيء عن مصطلح التسامح، وخاصة ما نطلق عليه التسامح الديني، فهو من المصطلحات التي ظهرت في عهود لاحقة، وخاصة في عصرنا الحاضر، ولهذا لا نجده بلفظه في القرآن والحديث، وإن كان القرآن والحديث يدعوان إلى ما هو أفضل منه، وهو ما نسميه بالعفو والمغفرة.

وهنا لا بد أن نفرق بين التسامح في الدين والتسامح الديني، فالتسامح في الدين خلق إنساني رفيع ينبغي أن يتصف به المسلم لكي يعيش حياة فعالة ومؤثرة، ويكون عضواً صالحاً في مجتمعه، أما التسامح في الدين بمعنى من المعاني التي ذكرناها في ثنايا حديثنا عن التسامح لغة واصطلاحاً، أي التسامح في حد من حدود الله، أو التنازل درجة عن أمر من أمور الدين، أو التعديل والتغيير في المفاهيم الدينية الراسخة الثابتة المتفق عليها بقصد التسامح سواء مع الآخر الذي يدين بغير ديننا، أو مع من هو من بني ديننا، ولكن على غير مذهبنا [1]، فإن

---

[1] – نقصد بالمذهب هنا ما هو معروف من المذاهب الفقهية الإسلامية المختلفة مثل الحنفية والشافعية والحنبلية والمالكية والجعفرية وغيرها .

هذا يعتبر خلطاً للأمور، ويحتاج إلى مراجعة وإعادة نظر، إذ أن التخالف في الدين أمر وضع الله تعالى له قاعدته الراسخة وهي ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1].

والآية تحمل من بين معانيها ضمناً الاعتراف بهذا الآخر صاحب الدين المختلف، وتقره على دينه الذي هو عليه[2]، وأما الاختلافات الدينية بين أصحاب الدين الواحد فلا يحلها التغاضي عنها أو إرجائها إلى أجل غير مسمى، وإنما يحلها الاجتهاد الصحيح بالبحث والدراسة والتحقيق في ضوء المبادئ المتفق عليها من الاعتراف بالآخر واحترام وجهة نظره، وفي ضوء الأولويات التي تفرضها الظروف التي يعيشها أبناء الأمة الإسلامية.

ويتضح من الحديث الذي روي عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ فَقَالَ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا "[3].

---

[1]- سورة الكافرون ٦.

[2]- طبعاً هذا لا يمنع أن نقول إن الذي يكفر بالإسلام له عند الله ما توعده به من العذاب، لكن إصراره على كفره في الدنيا لا يضرنا في شيء طالما لم يتعرض لنا أو لديننا بالسوء، وعندئذ علينا أن نواجهه بما يقتضيه ديننا.

[3]- أخرجه مسلم في كتاب الحدود، والبخاري في كتاب الشهادات، وكتاب أحاديث الأنبياء، وكتاب المناقب، وكتاب المغازي، وكتاب الحدود، والترمذي في كتاب

إن التسامح لا ينبغي أن يكون في حدّ من حدود الله، أو بمعنى آخر لا يكون التسامح في النزول درجة عن أمر من أمور الدين الأساسية أو العقدية بالطبع، إذ أن ضرر ذلك أكثر من نفعه، هذا إن كان له نفع أصلاً، وكلامنا هنا منصب على الاختلافات بين الفرق ذات الدين الواحد، ولهذا فإن الأحرى بنا أن نقول إن التسامح بمعناه الذي ذكرناه يكون حقيقة في التعاملات الدنيوية لا الأمور الدينية، لأن التسامح متطلب إنساني يحتاجه الناس في التعامل فيما بينهم في الأمور والمصالح الدنيوية التي تتطلب أن تميل كفة من أجل أن يعتدل الميزان، فيتسامح طرف في أمر مقابل الحصول على رد فعل حسن يعود بالخير على الطرفين المتعاملين، ومن مفهوم التسامح في المعاملات الدنيوية الإنسانية أن تعفو عن آخر فيما ارتكب أو يرتكبه في حقك، وألاّ تتشدد معه، وأن يعفو الآخر عنك فيما ارتكبته أو ترتكبه في حقه، وألاّ يتشدد معك، وهذا يعني أنك عندما تتسامح تعتقد أن الآخر قد أخطأ، وأنت تعفو عنه، والعكس صحيح، وبالتالي فإن الاعتقاد بخطأ الآخر موجود في نفس كل من الطرفين، وهذا أمر وإن كان من الجائز أن يتعلق بأمر من أمور الدنيا، وهو الذي نتداركه بما نطلق عليه التسامح، لكن الأولى أن يكون الوضع أرقى من هذا في أمور الدين، لأن الأمور الدينية تتطلب اجتهاداً ودراسة وفهماً وتصحيحاً، وليس مجرد التسامح الذي يعمل عمل المسكّن المؤقت، والتشدد في الأمور الدينية مرفوض من الأصل، فليس من حق فرقة من الفرق المختلفة والتي تدين بدين واحد كالفرق الإسلامية مثلاً أن تعتقد أنها على حق بنسبة مائة في المائة، وأن من يخالفها على باطل بنسبة مائة في المائة، والوصول إلى حل معادلة الاختلاف بين هذه الفرق لا يكون إلا بالدراسة والبحث والتحقيق والاجتهاد للوصول إلى اتفاق في نقاط الاختلاف، إذ أننا فيما يتعلق بديننا في حاجة ماسة إلى التصالح أولاً، وأقصد به التصالح الذي يقوم على

الحدود، والنسائي في كتاب الزكاة، وكتاب قطع السارق، وأبو داود وابن ماجه والدارمي في كتاب الحدود، والإمام أحمد في مسنده.

احترام الآخر وقبوله، والاعتراف بالخلاف، وعدم تحويله إلى اختلاف، فالخلاف مقبول ووارد في كثير من الأمور، لأنه وضع فطري يحدث بسبب وحدة المصدر وتعدد المتلقين، فقد يقصد المصدر شيئاً معيناً، ويفهم كل من المتلقين شيئاً يختلف في قليل أو كثير عن الآخر، ولكنهم جميعاً يلتقون عند النقطة المحورية في الموضوع، وهذا هو الذي كان حاصلاً – ولا يزال – عند علمائنا الكبار، فالجميع يتفق على أن صلاة الفرض واحدة، سواء كانت ركعتين أو ثلاث أو أربع بحسب الفرض المقصود، ثم إن هناك خلافاً حول النوافل والسنن لهذه الفروض، فقد يزيد فيها البعض، وقد ينقص فيها البعض الآخر، وكل يعتمد على فهم نص أو قياس أو اجتهاد، وهذا كله لا يعالج بالتسامح، لأنه ليس هناك نية الخطأ، وإنما الخطأ في الفهم، أو الفهم على وجه مختلف، ولكنه يعالج بمزيد من الدراسة والاجتهاد، وهنا نشعر بأهمية فتح باب الاجتهاد بشروطه الخاصة بالطبع.

أما الاختلاف في الدين والعقيدة فهو أمر لا يحتاج إلى نقاش باعتبار التسامح، فقد حل الله تعالى لنا هذه المعضلة كما سبق أن ذكرنا حلاً فطرياً يقبله البشر جميعاً فقال ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1].

والعلاقة مع هؤلاء دائماً علاقة إنسانية طبيعية مبنية على قوله تعالى ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[2].

---

[1]– سورة الكافرون آية ٦.

[2]– سورة الممتحنة آية ٨، ٩.

ولهذا فإن المسلمين في ضوء ما وضحنا من مفهوم التسامح باعتباره صفة إنسانية تتعلق بالتعاملات الدنيوية التي لا تؤثر سلباً على العقيدة أو العبادات يعتقدون أن إيمانهم بالرسل والأنبياء جميعاً، والأديان والكتب السماوية كلها جزء لا يتجزأ من الدين الإسلامي، وليس نوعاً من التسامح مع باقي الأديان، حتى وإن لم يؤمن أتباع الأديان السماوية الأخرى بدينهم أو بنبيهم عليه الصلاة والسلام، لأن التسامح كما سبق أن وضحنا له صورة تسبقه وهي الانتقام والثأر، بمعنى عدم التسامح والإصرار على عقاب المخطئ، وهذا في ذاته لا غبار عليه دينيا بشرط أن يتم بالطريق المشروع، أما النزول درجة في الإيمان بالأنبياء والرسل والأديان والكتب السماوية فهو مما يخرج المسلم من دينه، ولا يتم الدين إلا به.

وبنفس الطريقة نستطيع أن نفهم ميثاق المدينة الذي عقده النبي ﷺ مع غير المسلمين على أنه تنظيم لشئون الحياة بما يريده الله تعالى بوضع أسس وضوابط توضح لكل فريق ما له من الحقوق وما عليه من الواجبات، وهذا ليس من قبيل التسامح، وإنما من قبيل بناء وتأسيس المجتمع والدولة، والنزول عنها درجة يخل بالمقصود منها ولا يستقيم الأمر بدونها [1].

أسباب الخلاف بين المذاهب الإسلامية:

١- وحدة المصدر وتعدد المتلقين، وهو ما أشرنا إليه سابقاً من تعدد النصوص والاجتهادات.

٢- التطور العلمي والبحثي، وأقصد به هنا تطور مناهج البحث، وتعدد وسائل المعرفة، والتطور الكبير الذي شهدته العلوم والمعارف كلها، وكم من أقوال

---

[1] - للاطلاع على تفاصيل ميثاق المدينة راجع كتاب سيرت خير الأنام - إصدار قسم دائرة المعارف الإسلامية الأردية - جامعة بنجاب - لاهور .

كنا نظنها من الأحاديث النبوية، ثم كشف لنا علماؤنا وضعيتها، واتضح أنها ليست مما قاله النبي ﷺ، وبالتالي خلق هذا الأمر نوعا من الاختلاف.

٣- تعدد المرجعيات الدينية في العالم الإسلامي، وهو أمر وإن كنا لا نرفضه على إطلاقه، لكننا نرى أن يتراجع قليلاً ويفسح المجال لوحدة المرجعية حتى لا يحدث خلاف أو اختلاف بين أبناء الأمة الإسلامية الواحدة، فيحتفل بعضهم بالعيد في يوم، ويحتفل الآخر بعده بيومين، أو قبله بيومين مثلاً، وهو ما لمسناه في العيد الماضي في ربوع باكستان.

٤- تكاسل الحكومات في بذل مزيد من الجهد نحو التشجيع إلى صحيح الدين بالطرق الصحيحة الشرعية غير الملتوية.

٥- تكاسل بعض القائمين على أمر الدين، وعدم كفاءة بعضهم، وخاصة القائمين على أمر الدعوة في المساجد، وهم – في الحقيقة – الذين في أيديهم مفاتيح الأمور كلها.

٦- الأمية الدينية، وهو من مآسي العالم الإسلامي في وقتنا الحالي، فإنك سوف تجد نسبة الأمية في كثير من دول العالم الإسلامي تتعدى في كثير من الأحيان خمسين بالمائة ٥٠%، وهي أمية القراءة والكتابة، ويستتبع ذلك الأمية الدينية، فالذي لا يقرأ ولا يكتب يحتاج إلى من يقوده فيطيعه ويعتقد فيه، وقد يكون هذا القائد بدوره ليس على المستوى العلمي اللازم الذي يمكنه من الاجتهاد في الدين وإعلان الرأي الصحيح. ولا يعني هذا أننا نتهم كل من لا يعرف القراءة والكتابة بأنه مضلّل – بفتح اللام الأولى – ويساعد على زيادة نسبة الخلاف والاختلاف، وإنما نؤكد على أن هذا مما لا يليق بالمسلم الذي يؤمن بدين أول ما نزل فيه هو (إقرأ) .

٧- التخلف التعليمي: فالعالم الإسلامي - في معظمه - يتبع نظاماً تعليمياً رسمه له في الماضي آخرون أقلّ ما يقال فيهم أنهم ممن ينبغي الاحتياط منهم، وحتى عصرنا الحالي نجد السياسة التعليمية في بلاد المسلمين تتخبط لا تعرف لها أولوية صحيحة حقيقية، وتعتمد على النقل عن هذا الآخر الذي أشرنا إليه، دون أن تفكر في الرجوع إلى المنابع الحقيقية للعلم بمفهومه الواسع الشامل، والذي برع فيه أجدادهم، ودون مراعاة للفوارق الحضارية والثقافية الطبيعية بين الشعوب في العادات والتقاليد والدين واللغة وغيرها.

٨- مسخ الهوية الإسلامية، وهو أمر يتبع بالضرورة التخلف التعليمي وأمية القراءة والكتابة، فمن لا يتمسك بهويته ولا يعتز بها سيلجأ تأكيداً إلى الالتحاف بهوية الآخرين، وهنا يظهر نوع ما من الإحباط النفسي، نظراً للوضع المتراجع الذي يعيشه المسلمون مما قد يظنه من لا يملكون الوعي الصحيح أنه بسبب تخلف الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية.

الحاجة الملحّة إلى التسامح:

١- الوضع الحالي السيئ للمسلمين في الوقت الراهن، فليس من المنطقي أن تكون غير قادر على شراء ما تقتات به، ثم تذهب لشراء العصائر والمرطبات، فالاختلاف حينئذ يكون رفاهية لا معنى لها. وأحوال المسلمين في عصرنا الحاضر لا تحتمل الاختلاف الذي يختلقه البعض، فهم يحتاجون أكثر إلى التركيز على الأسس، والأسس كلها متفق عليها في حدّها الأدنى على الأقل، ولا أزال أذكر قولاً للدكتور علي جمعة - مفتي مصر الحالي - فحواه أن ما نسبته ٩٥ % من المسائل الفقهية لدى المسلمين متفق عليها جميعاً، وما نسبته ٥ % به خلاف، ولكن ما بال المسلمين يتركون المتفق عليه رغم كثرته وأهميته إلى المختلف فيه رغم أقليته وعدم أهميته.

٢- الاهتمام بالأولويات، وعلى رأسها معرفة الدين الصحيح وفهمه فهماً حقيقياً، وهو ما يتطلب عدم تضييع الوقت والجهد والمال في الفروعات، وتوفير كل هذا للتركيز على الصحيح المتفق عليه، ولنا أن نتخيل مدى المال والجهد والوقت الذي ينفق على مطبوعات وأنشطة كان الأولى بها أن تنفق على ما هو أهمّ منها، وأصدقكم القول إن هذا لا ينحصر في أمور الدين فقط، ولكنه عام في حياتنا، إذ أن من عيوب العالم الإسلامي الحالي أنه غير محدد الأولويات، أو على الأقل رؤيته للأولويات غير واضحة.

٣- حماية الأوطان والدفاع عنها، والتنبه إلى ما يحاك بنا، حتى لا نقع في شراك ينصبها لنا أعداؤنا، ثم النهضة بهذه بالأوطان.

٤- الحاجة الماسة إلى الوحدة والاتحاد بين المسلمين لترتيب بيوتهم من الداخل.

وبعد

فإن التسامح متطلب إنساني لا غنى للناس عنه في التعامل فيما بينهم في الأمور والمصالح الدنيوية التي تتطلب أن تميل كفة من أجل أن يعتدل الميزان، فيتسامح طرف في أمر مقابل الحصول على رد فعل حسن يعود بالخير على الطرفين المتعاملين، وكأن التسامح في جانب منه معادلة منطقية مبنية على العقل والمنطق، واتباعه يفيد الطرفين" المتسامح والمتسامح معه" فائدة مادية ملموسة، وقد يكون التسامح سلوكاً عاماً غير متكلف، وهو المطلوب، حتى وإن كان التسامح رغماً بدافع من الإحساس بالمسئولية تجاه المجتمع أو تجاه الأسرة، فإنه على أية حال يشيع جوا من السلام بين الأفراد والأمم والشعوب، وهو سلوك ينبغي أن نشجع عليه. والتسامح لا يكون مع فئة معينة أو شخص بعينه، أو مجتمع بذاته، إذ أنه صفة إنسانية ترتكز على قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى

كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾[1]، وبالتالي فإن التسامح يكون مع الصديق والعدو، ولكن بلا إفراط أو تفريط، فلا ينبغي أن يكون التسامح في مبدأ أو أصل، إلا تحول الأمر إلى ضعف وفوضى.

والاعتراف بحق الآخر في الحياة واحترام وجهة نظره رغم مخالفتها أمر ليس هيناً ويشق على النفس، ويتسم بالصعوبة، والأمور التي تشق على النفس ويصعب عليها اعتيادها ينبغي أن يتم زرعها ورعايتها وتربيتها منذ الصغر، أي في المرحلة التي تكون النفس فيها طيعة تقبل التشكيل وتنصاع للتغيير. ألا ترى أن الدين الإسلامي يأمر بأن نعلم أطفالنا الصلاة منذ صغرهم في السابعة من العمر حتى نعودهم عليها، وذلك لأن الصلاة مما يشق على النفس القيام بها ﴿ ..وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾[2]، ومن هنا يجب أن نعود إلى البداية، إلى الطفولة المبكرة، وننقي سلوكنا. ألا ترى أن مجتمعاتنا تقضي على هذه الفكرة في مهدها حين تفرق في التربية بين الولد والبنت، بل إننا نربي أبناءنا الذكور بطريقة تجعل كلا منهم يظن أنه أكثر أهمية من أخته، وأن واجب أخته هو خدمته. هذه النظرة التي تعود الطفل منذ بدايته على أنه الأفضل، وأن الآخر في هذه الحالة وهو الأخت أقل أهمية، وبالتالي أقل حقوقاً، وهذا يعني طرفاً أقوى وطرفاً أضعف، والفطرة البشرية غالباً لا تساعد الطرف الأقوى على احترام الآخر وقبوله والاعتراف به، لكن الإسلام يقول "ليس القوي بالصرعة، إنما القوي من يملك نفسه عند الغضب".

الحلول

١- الاهتمام بتربية النشء وزرع قيمة التسامح فيهم منذ الصغر، وتعليمهم احترام الآخر والاعتراف بوجوده. ولن يتأتى هذا إلا بالاهتمام بالتعليم،

---

[1]- سورة الإسراء آية ٧٠.
[2]- سورة البقرة آية ٤٥ .

وتعويدهم على الاعتراف بالخلاف والاختلاف، وإفهامهم أنه لا يفسد للود قضية.

٢- العمل وبقوة على توحيد المرجعية الدينية في العالم الإسلامي.

٣ - التركيز على القضايا المتفق عليها، ووضع الأمور الخلافية في حجمها الذي تستحقه، وعدم التضخيم فيها.

٤- التركيز في اختيار الأئمة والدعاة والوعاظ وخطباء المساجد، وانتقاء الأصلح منها والأكثر كفاءة، على الأقل مثلما نفعل في باقي التخصصات.

٥- عقد دورات تدريبية للخطباء والوعاظ، وتوجيههم إلى التركيز على نقاط الاتفاق واحترام الآخر وقبوله.

٦- في المقابل علينا أن نهتم بأمر هؤلاء الأئمة والدعاة والوعاظ وخطباء المساجد، ونعمل على أن نوفر لهم سبل الحياة الكريمة، حتى يرتفع مستواهم في المجتمع، وتعود إليهم الثقة التي فقدوها بسبب تقصيرهم من جانب، ووضعهم الاجتماعي والمادي المتدني من جانب آخر .

٧- تطوير المناهج التعليمية، وعدم إهمال مادة الإسلاميات في مراحل التعليم المختلفة .

٨- تطوير المدارس الدينية بالشكل الصحيح، وليس وقفها أو إلغائها.

٩- هناك دور كبير وهام يقع على عاتق الأدباء والشعراء والمفكرين ووسائل الإعلام المختلفة في نشر قيمة التسامح بين أفراد المجتمع، وذلك من خلال التركيز على قيم الحب والاحترام في التعامل مع الآخر، والبعد عن تناول غرائز الانتقام والكراهية والتعالي على الآخرين. وعلى وسائل الإعلام بصفة خاصة أن تعمل على نشر وترويج المنهج العلمي المنطقي على مختلف المستويات في حياتنا، ولا أقصد أبداً أن نتخلى عن العاطفة، لكن العاطفة

فطرة فينا، بينما المنهج العلمي اكتساب، والاكتساب يحتاج إلى الجهد الكبير، أما العواطف فهي في الفطرة بطبيعة الحال.

١٠ – يستتبع هذا أن نحرص على أمانة الكلمة، فنجتهد استعمال لغتنا أيضاً على أن لا نعتمد على إثارة عاطفة من نخاطبه، واللغة الأردية على سبيل المثال مليئة بالتعبيرات التي تؤدي أو تعكس الإثارة الشديدة، وليس العيب في اللغة، فإن هذا اتساع يحسب لها، ولكن العيب فيمن يستخدمها، ونظرة بسيطة إلى أفلامنا ومسلسلاتنا تؤكد لنا هذا الأمر، فكلها تفتقد إلى الاعتدال في الأحداث وفي اللغة أيضاً، وهذه الوسائل هي التي توجه المجتمع وتقود أفراده، وخاصة في سن معينة، وهي السن التي تقبل التأثير والتغيير بسهولة وبساطة.

١١ – تطوير الخطاب الديني والعمل على أن يتصف بالتوازن والاعتدال والمنطق والبعد عن اللعب بالعـــواطف، ومراعاة متطلبات المرحلة الراهنة التي يعيشها المسلمون، والتي لا تتحمل مزيداً من الاختلافات والتعصبات على أي مستوى من المستويات، ويلاحظ في بعض المساجد أننا نتبنى أسلوباً غارقاً في العاطفة والإثارة، وكل هم الخطيب أن يثير عاطفة الناس، سواء كان ذلك من أجل إشباع رغبته في أن يعجب به الآخرون، أو أن يقنعهم بوجهة نظره اعتماداً على العاطفة لا أكثر، وهذا يمنعنا من التفكير العلمي المنهجي، والمساجد في الحقيقة معاهد علمية كبرى، ولهذا ينبغي أن يكون الخطاب الديني فيها خطاباً علمياً أيضاً.

١٢ – إنشاء مركز بحثي عالمي، أو تشكيل لجنة لوحدة المذاهب تضم كبار علماء المذاهب الإسلامية المختلفة وتكون مهمتها التوعية الدينية الصحيحة، مستخدمة في ذلك الوسائل العلمية المتطورة.

المصادر والمراجع

١ – القرآن الكريم .

٢ – صحيح البخاري .

٣ – الإمام النووي – رياض الصالحين – بيروت – لبنان ١٩٨٩م .

٤ – د . إبراهيم محمد إبراهيم و د . أحمد محمد أحمد – من العلماء العربية في شبه القارة الهندية – القاهرة – مصر ٢٠٠٦م .

٥ – أحمد حسن الزيات – تاريخ الأدب العربي – بيروت – لبنان ١٩٩٣م .

٦ – حافظ محمد طاهر محمود أشرفي – رواداري سيرت طيبة كي روشني مين – لاهور – باكستان ٢٠٠٠م .

٧ – مجموعة من العلماء – سيرت خير الأنام – إصدار قسم دائرة المعارف الإسلامية الأردية – جامعة البنجاب – لاهور .

٨ – د . يوسف القرضاوي– الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف– قطر ١٩٨٤م .

٩ – د . مظهر معين – اسلام اور ذات بات – لاهور – باكستان ٢٠٠٠م .

١٠– صفدر حسن صديقي – مذهبي رواداري – لاهور – باكستان ٢٠٠٠م .

١١– منور جهان رشيد – بجون كے نفسياتي مسائل – إدارة التأليف والترجمة – جامعة البنجاب – لاهور – باكستان ١٩٧٩م .

١٢– د . محمد أمين – اسلام اور تهذيب مغرب كي كشمكش – لاهور – باكستان ٢٠٠٦م .